

أحاديث رمضان ١٤٢٦ هـ - الفوائد - الدرس (٠٨-٣٦) : الجاهل يشكو الله إلى الناس  
فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٥

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين  
أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، هذه الفائدة هي في الحقيقة  
مقياس لنا جميعاً، قال ابن القيم: " الجاهل يشكو الله إلى الناس ".

### حقيقة الشكوى لغير الله:

وهذا غاية الجهل بالمشكوك والمشكوك إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكوا  
إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال: " يا هذا، والله ما زدت على  
أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك "، وقد قال الشاعر:  
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم  
لمجرد أن تشكو الله إلى الناس فهذا مقياس الجهل، لأن الله هو أرحم الراحمين، وبيده كل شيء،  
لماذا الشكوى لغير الله ؟  
وقال لك:

### ( ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ )

(سورة غافر: من الآية ٦٠)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:  
(( يَنْتَرِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ  
يَدْعُونِي فَأَسْتَجِبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ))

[ متفق عليه ]

الله عز وجل عرض نفسه علينا، قال لك: لك مشكلة ؟ عندك سؤال ؟ عندك حاجة، تحب أن تتوب؟  
تحب أن تستغفر ؟ أنا جاهز، وأنت في الصلاة تقول: سمع اللهم لمن حمده، يعني أنا أسمعك يا  
عبدي، الله عز وجل ينتظرنا: " يا داود، لو علم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك  
معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولما اتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف  
بالمقبلين؟".

الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

### ( ادْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا )

(سورة طه)

فكيف بالذي قال: سبحان ربي الأعلى ؟ والذي قال:

## ( مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي )

( سور القصص الآية: ٣٨ )

( اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَفُؤَاا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ )

فكيف بالذي قال: لا إله إلا الله؟

**(( لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمان الوارد ))**

[ أخرجه ابن عساکر في أماليه عن أبي هريرة ]

هو ينتظرك، ينتظرك ليسعدك، ليكرمك، ليسلمك، ليرحمك، الجاهل يشكو الله إلى الناس، إنسان لنيم، ضعيف، فقير، جاهل، تشكو الله إليه؟! فالجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذه غاية الجهل، بالمشكو والمشكو إليه، غاية الجهل بالله، وبالناس، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكوا إليهم،

## شكوى الأنبياء:

ماذا قال سيدنا يعقوب؟

( إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ )

( سورة يوسف الآية: ٨٦ )

## الشكوى إلى الله و الشكوى على الله:

ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتنه وضرورته، فقال: " يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ".

بالمناسبة: قيل: من شكأ إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن شكأ إلى كافر فكأنما اشتكى على الله. ما من موقف أغبى، ولا أحمق من إنسان مؤمن يشكو إلى كافر ربه، مناسبة ذهبية ليشمت به، مناسبة ذهبية ليقول له: ألم أقل لك دعك من طريق الإيمان، كله متاعب؟ لو شكأ مؤمن إلى كافر تضيقاً من جهات معينة لقال له: نصحتك فيما مضى، ليس لك مصلحة أن تكون مؤمناً، أو ديناً، ما أجد موقفاً أصعب من أن يشمت كافر بمؤمن، كيف يشمت به؟ حينما يشكو الله إليه:

وإن شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف بالله إنما يشكو إلى الله وحده،

( إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ )

الإله هو معك، يرى كل شيء، ويسمع كل شيء، ويعلم كل شيء، وقد لا تحتاج أن تشكو. ورد، ولكن هناك من يقول: النص غير صحيح: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: علمه بحالي يغني عن

سؤالي.

إذا كنت في كل حال معي فعن حملي زادي أنا في غنى  
فالعارف بالله إنما يشكو إلى الله وحده.

### اشكو إلى الله نفسيك لأنها سبب البلاء:

هناك مرتبة أعلى وأعرف العارفين ممن جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، لأنه يعلم علم اليقين أن الناس لا يسلطون عليه إلا بذنب منه، لذلك من الأحاديث الجامعة المانعة الموجزة، والله كأنه جمع علم الأولين والآخرين:

### (( لا يخاف العبد إلا ذنبه ))

[ورد في الأثر]

هناك أقوياء، هناك طغاة، هناك وحوش، هناك ثعابين، هناك عقارب، هناك غرق، هناك حادث سير، المصائب لا تعد ولا نحصى، أما لو كنت متحققاً فلا تخاف من كل هذه، ولا من الطغاة، ومن الأقوياء، ولا من القناصين، ولا من المخادعين، ولا ممن يحقدون عليك ولا ممن يملكون أمرك، لا تخاف إلا من ذنبك، ذنبك يسبب كل هذا، وحوش كاسرة مفترسة، لكنها مربوطة بأزمة قوية، بيد جهة، هذه الجهة بيدها هذه الوحوش، وهي جهة عادلة رحيمة، علاقتك معها لا مع الوحوش، فإن أرضيتها منعت عنك الوحوش، وإن لم ترضها أرخت لهم الحبل فوصلوا إليك، والدليل:

( فِكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَأَنْظُرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ

بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

(سورة هود)

ورد في بعض الآثار القدسية:

(( أنا الله، لا إله إلا أنا، مالك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني

حولت قلوب ملوكهم بالرفقة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم

بالسخط والنقمة، فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا

أنفسكم بالذكر والتضرع، أكفكم ملوكم ))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

الحجاج قتل رجل أهون عنده من قتل ذبابة، طاغية، جبار، له إيجابيات لها مكان آخر، الحسن البصري قام بأمانة العلم فبين، فلما بلغ الحجاج أن الحسن البصري بين، ونال منه استشاط غضباً، وقال لجلسائه: يا جنبا، يقوم عبد في البصرة فينال مني وتسكتون؟ والله لأروينكم من دمه يا جنبا، كلمة واحدة، أمر بقتله - قتل سعيد بن جبير تابعي - أمر بقتله، وجاء بالسياف، ومد النطع، وهو في مجلسه، وحوله كبار معاونيه، وقال: انتوا بالحسن البصري، جاؤوا بالحسن البصري، لما دخل إلى مجلسه، ورأى السياف واقفاً، والنطع قد مدّ على الأرض لئلا يؤذي دمه الأثاث، حرك

شفتيه، ولم يدر أحد ماذا قال، فإذا بالحجاج يقول له: تعال إلى هنا يا أبا سعيد، وما زال يقربه، ويقربه حتى أجلسه على سريره، وقال: يا أبا سعيد، أنت سيد العلماء، لكن دخل الحسن البصري بهيبة العالم، بهيبة المتصل بالله، بهيبة المتوكل على الله، فما زال يقربه حتى أجلسه على سريره، وسأله في موضوع وأجابه، وعطره، وضيغه، وقال: يا أبا سعيد، أنت سيد العلماء، وشيعة إلى باب المجلس، الذي صعق الحاجب والسياف، تبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لتقطع رقبتك، فما الذي حصل؟ قال له: حينما دخلت حركت شفقتك، ماذا قلت لربك؟ قال له: قلت له: "يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نعمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم".

( قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَى )

(سورة طه)

ماذا أقول لكم، هناك طغاة، الطاغية قتل الإنسان أهون عليه من قتل ذبابة.

( قَالَ لِمَا نَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى )

(سورة طه)

فالعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله لا من الناس، ولكن من نفسه، لأنه يعلم علم اليقين أنه:

( وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ )

(سورة الشورى الآية: ٣٠)

وما أصابك من سيئة فمن نفسك.

( أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ )

(سورة آل عمران الآية: ١٦٥)

(( ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر ))

[ أخرجه ابن عساكر عن البراء ]

**قبل أن تشكو حاسب نفسك:**

يا أيها الإخوة، قبل أن تشكو، قبل أن تضجر، قبل أن تلعن زيداً أو عبيداً، قبل أن تندب حظك قل: ماذا فعلت مع ربي حتى أستأهل هذا الذي أصابني؟ كن جريئاً مع نفسك، لا تحاب نفسك، لا تجعلها فوق الخطأ، لا بد من شيء فعلته حتى استوجب أن يتسلط زيد عليك أو عبيد.

( مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ )

(سورة النساء الآية: ١٤٧)

( وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ )

(سورة سبأ)

لذلك المؤمن الراقى أو العارف بالله، أو أعرف العارفين لا يشكو الناس إلى الله، يشكو نفسه إلى الله، بناء على هذا أنا حينما أدعو في الصعوبات، وفي النوازل، وفي البلاء أقول: يا رب، انصرنا على أنفسنا حتى ننتصر لك، حتى نستحق أن نتصرنا على أعدائنا، كن عالماً، كن موضوعياً، كن جريئاً، لا تخط، الله عز وجل خلقك ليسعدك، ما خلقك ليعذبك، ولكن الله رحيم، يسوق هذه الشدائد كي نتوب إليه، كي نعود إليه، كي نصطلح معه.

لذلك العارف بالله، أو المؤمن يشكو - دققوا - يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، الله عز وجل في آيات كثيرة، وكثيرة جداً يبين أن المصيبة سببها الإنسان، شرد عن الله، أخطأ، تكلم كلمة قاسية، أنت على الشبكية ترى مصيبة.

أحدهم عنده أخت عانس، مصيرها عند أخيها، وزوجة أخيه قاسية جبارة ، والأخ جاهل، ترضيه، وتبالغ في الإساءة إليها، مرة والأخ جالس على أريكة، وأخته جالسة على الأرض، فوكزها برجله، وقال: انت لي بكأس ماء، وزوجته شابة وجالسة، قامت مسكينة مقهورة، الذي عنده بنت، وفاتها قطار الزواج إذا أمكن أن يهبي لها بيتاً قبل أن يموت تعيش فيه مستورة مصونة مكرمة هذا من أعظم الأعمال، قد تكون زوجة الأخ جبارة، تتقن في إيقاع الأذى بها، هذا ركب مركبته، وسافر إلى حلب، وقع له حادث سير، هُرس رجله اليمنى، وقطعت من أعلى الفخذ في ثاني يوم.

أنا ما رأيت أحق ممن يتجبر في الأرض، ما رأيت أغبى ممن لا يدخل الله في حساباته اليومية، ما عبد الله بالأرض أفضل من جبر الخواطر .

والله لي أقرباء حدثوني أن شاباً خطب فتاةً وأعجبته، هذه الفتاة معها عرج ، والفرق بين كل رجل ٨ سانتيمتر، هي ذكية جداً، فارتدت ثياباً سابغة للركبة، وهيأت حذاء الأول كعبه ٨ سانتى، والثاني صفر، فترمم الفرق بالحذاء والثياب سابغة، العرج اختفى ، يبدو أنها جميلة، فخطبت، متى كشفت ؟ يوم العرس، وله أم حاقدة، أمرته أن يطلقها فوراً، لأنها غشته، يبدو أن هذا الشاب لا يحب كسر خاطر، رضي بها، وأصر على أن تبقى عنده زوجة، وأحبها، يقسم لي أقربائي أنه خلال سنتين رزقه الله ما يزيد على مئة مليون.

أنا لا أقول: إن عملها صحيح، لا تظنوا أنني أؤيد عملها في غش الحقيقة، لكن الشابة كل هدفها في الحياة الزواج، درّسنا في علم النفس أن الحاجة إلى الأمومة هي الدافع الأول في الجنس البشري، لذلك ما من عمل أعظم عند الله من أن تشفع في زواج، أفضل شفاعاة أن تشفع بين اثنين في نكاح، ورد في الأثر: من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها عبادة سنة، قام ليلها، وصام نهارها.

ما من عمل أعظم من أن تدل شاباً مؤمناً على شابة مؤمنة، فهذه الأسرة في صحيفتك، السعادة، والوفاق، وجبر خاطر، في هذه الأسرة في صحيفة الذي كان شافعاً في هذا الزواج، وكلام الشيطان دعوه تحت أقدامكم، امش بجنابة ولا تمش بزواج، ما الذي يحصل ؟ تدل شاباً على شابة

فيتزوجون، يعيشون ثلاث سنوات، أربع سنوات بأعلى درجات السعادة، يختلفون، يأتون إليك، لماذا لما كنتم متوافقين ثلاث سنوات ما نفذ واحد منكم، ولا واحد قال له: شكراً، لما نشأت مشكلة سيدي أنت دللتني عليها، دبر نفسك.

لذلك عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

**(( الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَدَاهُمْ أَكْبَرُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ،  
وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَدَاهُمْ ))**

[الترمذي وابن ماجه]

**(( اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب  
أهله كنت من أهله ))**

[رواة ابن النجار عن علي]

العارف بالله يشكو نفسه إلى الله، لا يشكو الناس، الناس بيد الله، فالذي يكرمك سمح الله له، والذي يقسو عليك سمح الله له، لذلك قال بعض العارفين: " أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي".

أحياناً الزوجة تحزن، يكون هو نفسه حارن أيضاً، الزوج نفسه فيه تقصير، فيه شرود، فيه تغلث قليل، ينعكس تقصيره على موقف غير كامل من زوجته، لذلك المراتب ثلاثة، أخسها أن تشكو الله إلى خلقه، كتلة جهل، دعك بأدبك، لا تفضح نفسك، لا تشمت بك إنساناً.

### اجعل خطأ ساخناً بينك وبين الله:

بالمناسبة، لو شكوت إلى مؤمن أشفق عليك، لكنه ضعيف، ولو شكوت إلى كافر شمت بك، لذلك من الأدعية النبوية،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

**(( تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبِئَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسَوْءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ ))**

[متفق عليه]

لذلك الإنسان يعمل خطأ ساخناً مع الله، يناجيه، يخاطبه، يعتذر، يستغفر، يعلن توبته، اللهم اقبل توبتي، اللهم آمن روعتي، اللهم أقل عثرتي، اللهم اغفر زلتي، كن في مناجاة مع الله، اسأله، اعتذر، اطلب السماح منه، عبر عن ضعفك أمامه، عبر عن محبتك له، كن في حوار بينك وبين الله، وهذا الحوار اجعله بينك وبين الله، ولا تحاور أحداً من الناس، كن قوياً، بقدر ما يتذلل المؤمن لله بقدر ما هو عزيز على الناس، لا يتضعض أمامك، لا يضعف، أحياناً يبكي رجل لمصيبة أمام الرجال، ابك بينك وبين الله،

لا تحزن على شيء فاتك من الدنيا:

لذلك قال الفقهاء: من بكى في الصلاة - خطأ يبكي في الصلاة - من بكى في الصلاة حزناً على شيء فاتته من الدنيا فسدت صلاته.

من أجمل ما قيل عن الصديق رضي الله عنه أنه " ما ندم على شيء فاتته من الدنيا قط " .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب  
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب  
إذا صح منك الوصل فالكل هي ن وكل الذي فوق التراب تراب

\*\*\*

هذه الأنصارية التي بلغها أن النبي قد قتل في أحد، فهرعت إلى ساحة المعركة لا تلوي شيء، رأت أباهما مقتولاً، قالت: ما فعل رسول الله؟ رأت أخاهما مقتولاً، قالت: ما فعل رسول الله؟ رأت زوجها مقتولاً، قالت: ما فعل رسول الله؟ رأت ابنها مقتولاً، فلما وقعت عينها على رسول الله قالت: يا رسول الله، كل مصيبة بعدك جلل، ما من مشكلة، امرأة تفقد أباهما، وزوجها، وابنهما، وأخاهما، وتحرص على حياة رسول الله.

#### تبدل حال المسلمين و ما يجب فعله:

والله يا إخوان، الصحابة كان الواحد بمليار، والآن والله المليار بأف، وليس بواحد أف، استبدلوا أمر الله "اقرأ" بأمر ارقص، المسلمون لهم مساجد، يصلون، لكنهم في واد، والإيمان في واد آخر، لذلك:

( فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا )

( سورة الكهف )

وأمرهم ليس إليهم، وكلمتهم ليست هي العلية، وللكفار عليهم ألف سبيل وسبيل، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، فالإنسان يا إخوان إذا أمكن أن يصلح المجتمع فهذه بطولة، وإن لم يمكن فليصلح نفسه، وليقرأ قوله تعالى:

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ )

( سورة المائدة الآية: ١٠٥ )

إن استطعت أن تصلح الناس فأنت بطل، وإن لم تستطع، إن أصروا على الدنيا وعلى الاختلاط، وعلى الربا، وعلى الكسب الحرام، وعلى الكذب، وعلى النفاق فأصلح نفسك.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا أرضنا وارضنا عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

**والحمد لله رب العالمين**